

مناقشات حول مفهوم الأمة

نص المحاضرة التي ألقاها الرفيق ناجي علوش في بيروت بتاريخ 10 شباط 1979



منشورات الطليعة

1987

مناقشات حول مفهوم الأمة

ناجي علوش

ايها الاخوة ، سنتناول اليوم ، وفي هذه المحاضرة موضوعا معقدا ايضا (١) ، تم تناوله في كثير من الابحاث التي نستطيع ان نسمي بعضا منها علميا . الا ان جميع هذه الابحاث ، ما نسميه منها علميا ، وما نسميه غير علمي ، لم تستطع ان تعطي الكلمة الفصل في هذه القضية . وهذه حقيقة هامة تتضمن أمرين :

الاول : اننا سوف لا نعطي ايضا الكلمة الفصل في هذه المحاضرة ، وعند تناولنا لهذه القضية .

والثاني : ان هذه القضية ستبقى موضوع مناقشات لا بيننا فحسب ، بل بين جميع المهتمين الان وفي المستقبل .

هل يعني ذلك الا نعطي راينا في هذه القضية ؟ الا نناقشها ؟ لا طبعا . ان علينا ان نناقشها ، لان مناقشتنا لها ستحدد لنا على

---

١ ـ ناجي علوش ١٠ـ٤ـ١٩٧٩

اي اساس سنعمل . هل سنعمل باعتبارنا جزءا من أمة عربية ، او سنعمل باعتبارنا اناسا لا يعرفون الى اية امة ينتمون ؟ وانهم بالتالي ينتظرون نشوء أمة ينتمون اليها ، او ربما «أمم» ؟!

عن اية امة نتحدث ؟ نحن نتحدث عن العرب . فلنبدا بطريقة صحيحة . من هم العرب ؟ ان هذه الكلمة قديمة استخدمت حسب المصادر العلمية منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة [٢] . وهي موجودة في بعض النصوص القديمة ، وتتحدث عن اقوام تسكن هذه المنطقة التي نسكنها اليوم ، تسكن سيناء مثلا ، او تسكن الجزيرة العربية ، او تسكن العراق او تسكن سوريا ولبنان . ثم اتضح معنى هذه الكلمة مع التطور التاريخي ، وزاد اتضاحها مع الفتح الاسلامي وبعده . وهي تعني اليوم هؤلاء الناس الذين يسكنون الاقطار التي تسمى اليوم عربية . وعلى ذلك اجماع كامل . اذ ليس هنالك خلاف على أن الناس الذين يسكنون الاقطار التي تسمى عربية عرب ، وان كانت هنالك بعض الدعايات المضادة كالدعاية الصهيونية مثلا التي تحاول ان تنكر هذه الحقيقة ، لانها تعتقد انها بانكارها تساعد على نمو النزعات الاقليمية والاثنية المضادة .

هل يتجافى ما نطرحه مع الموضوعة التي تقول ان الامم نشأت في العهد الراسمالي ؟ ارجو ان تلاحظوا انني تحدثت عن العرب ، ولم أقل الامة العربية ، حتى لا نقع في التباس .

ان هذا لا يتجافى مع الحقيقة ، حتى ونحن نأخذ هذا التعريف الذي استخدمه ستالين مثلا ، واستخدمه آخرون بعين الاعتبار ، والذي يقول : «ان الامم تكونت مع انتصار الراسمالية على

---

٢ ـ تسبب وهيبة الخازن في كتابه «من الساميين العرب» ص ١٥ يقول : «اما العرب فظهورهم في التاريخ يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد ، حيث تقلق غزواتهم ملوك آشور» ؛ وهذا يعني انهم موجودون وبهذا الاسم قبل هذا التاريخ.

الاقطاع» . وقد سمّى ستالين هذه الامم ، الامم الحديثة . الا ان ستالين ، والآخرين لم يوضحوا شيئا كان واضحا . وهو ان هنالك امما قديمة . واقصد بذلك ان هنالك جماعات من الناس اخذت اسماءها قبل العهد الراسمالي .

فلقد عرف التاريخ العرب والفرس والرومان واليونان . وعرف شعوبا اخرى اكتفيت بذكر اهمها . مَن هؤلاء ؟ هل هم قبائل ؟ ليسوا قبائل قطعا . فلقد انشأ هؤلاء حضارات كبيرة ، وقادوا دولا واسعة ، وقاموا بغزوات وفتوح تتعدى حدودهم الطبيعية ، واحتلوا اراض واسعة . ماذا يمكن ان نسمي هؤلاء ؟ لقد سماهم التاريخ العرب والفرس والرومان واليونان . هل كان هؤلاء امما؟ هل كان كل من هؤلاء امة ؟

اجيب بنعم لاعتبارين :

الاول : اذا لم يكونوا امما فماذا كانوا ؟ اذا لم يكن العرب امة فماذا كانوا ؟ لماذا سمُوا عربا ؟

واذا لم يكن الفرس امة فماذا كانوا ؟ واذا لم يكن الرومان امة فماذا كانوا ؟ ولماذا يمكن الا نسميهم امة ؟ اذا كنا نعتبر ، او اذا كان التعريف العلمي يعتبر ، ان الامة جماعة من الناس تكونت تاريخيا ، تعيش على بقعة ارض ، ولها سوق اقتصادية مشتركة . فلقد كان العرب في ذلك الزمان جماعة من الناس تكونت تاريخيا، مستقرة على بقعة من الارض ، لها لغة مشتركة ، ولها تاريخ مشترك ، ولها سوق مشتركة ، حتى لو اعتبرنا قضية السوق المشتركة من القضايا الاساسية ، فان العرب حسب هذا التعريف امة . لا لاننا نريد ان نحوّر التاريخ ، وان نزوّر الحقائق ، بل لان هذه هي الوقائع العلمية الحديثة مطبقة على التاريخ القديم . هذه قضية اولى .

الثاني : انه لا يجوز لنا ان نعتبر ان ما حددته التعريفات التي تعلمناها كاف ، وان هذه التعريفات جامعة ومانعة ، وان ما لم تذكره التعريفات اصبح خارج التاريخ ، لانني اعتقد ان هذه

التعريفات حتى التي كتبها أناس كستالين ، وحتى هذه التعريفات التي اعتبرت جامعة مانعة ، اعتقد بأنها تناولت فترات من التاريخ محددة ، هي فترات التاريخ الاوروبي الحديث ، ولم تلجأ الـــى دراسة التاريخ القديم . وأشعر بأن علينا ان نعود فندرس هذه القضية من جديد ، لكي نحدد تعريفا اكثر دقة ، لا يتناول فترة واحدة من التاريخ فحسب ، بل يتناول التاريخ كله . ولا ينسجم مع فترة واحدة من التاريخ فقط ، بل ينسجم مع فترات طويلة منه . وخاصة الفترات المعروفة من التاريخ البشري . العـــرب اذن جماعة من الناس ، تكونت تاريخيا ، استقرت على بقعة مـــن الارض ، كانت لها دولة واحدة وسوق مشتركة في يوم من الايام، ثم حدثت الغزوات الخارجية ، وتفتتت الوحدة السياسية . وتفتتت السوق الواحدة ، ولكن الامة بقيت امة . وهذا مـــا سنناقشه فيما بعد ، عندما نتحدث عن التعريف بدقة ، وعـــن مناقشة عوامل تكوين الامة .

والعرب بهذا المفهوم امة من الامم القديمة . واود ان افرق بين الامم القديمة كالرومان والفرس والعرب ، والامم الجديدة التي نشأت في العهد الراسمالي كالفرنسيين والايطاليين الذين انبثقوا عن أمم قديمة .

اين سكن العرب منذ القديم ؟ اذا عدنا الى الدراســـات التاريخية ، فسنكتشف انهم سكنوا او قطنوا هذا الوطن الــذي نسميه الوطن العربي منذ فترة تاريخية تصل الـــى ثلاثة آلاف عام (١) . وهذه ليست دراساتنا ، هذه دراسات العلماء الاجانب،

---

١ ـ نقصد بذلك هؤلاء الذين يسمون عربا ، اما الاقوام التي انحدر منها العرب والتي تسمى الشعوب السامية احيانا ، فانها تقطن هذه المنطقة منـــذ اجيال عديدة قبل ذلك ، تبلغ آلاف السنين ايضا .

علماء الآثار وعلماء التاريخ . نكتشف ان هذه الجزيرة العربية كانت تمد هذا الوطن العربي بفيض من الناس ، يقطعون البحر الاحمر الى افريقيا ، فيسكنون المناطق التي هي اليوم الصومال وارتيريا. ويصل المد الى الهضبة الاثيوبية ، فيتوقف بعد ان يترك اللغات اليمنية القديمة فيها ، وهي لغاتها الى اليوم . ثم يمتد غربا عبر وادي النيل ، فالصحراء الافريقية ، التي هي الصحراء العربية في افريقيا ، ليستقر على الشواطىء وليستقر في الصحراء . وظلت هذه الهجرات تتوالى . ثم كانت هنالك هجرات اخرى من الجزيرة العربية الى العراق فسوريا ، ومن لبنان وسوريا الى تونس وليبيا والمغرب . وكانت قرطاجة (٢) من ثمار تلك الهجرات. وقرطاجنة دولة الفينيقيين احدى الدول العربية التي تكونت في مراحل تاريخية معينة . وستستغربون اذا عرفتم ، ان مدينة من المدن التي انشأتها هذه الهجرات ، كان اسمها حضرموت ، كالمدن التي انشئت في لبنان ، وكالمدن التي انشئت على شواطىء الخليج العربي ، والتي ما زالت قائمة حتى الان : جبيل ، وصيدا ، وصور ، وحضرموت . ولقد زرت سنة ١٩٧٧ مدينة سوسة ، وهي مدينة تونسية ، فقال لي المرافق اتعرف ما اسم هذه المدينة؟ قلت له لا . قال لي ان اسمها القديم هو حضرموت . وهي من مدن القرطاجنيين . هنالك حقائق اخرى اكثر وضوحا. مثلا ، كان هنالك نقاش حول علاقة مصر بالعرب ، وعلاقة البربر بالعرب . ولم تكن الدراسات العربية قد حلت هذه الاشكالات ، حتى جاء العلماء الاجانب ودرسوا اللغة المصرية القديمة ، واكتشفوا انها لغة سامية ، وانها ، لولا بعض التاثيرات الماضية ، كلغة اليمن في الجنوب . ثم جاء العلماء ايضا ودرسوا لهجة البربر ، فاكتشفوا انها ايضا مما يسمى اللغات السامية . لقد كانت الجزيرة العربية

---

٢ ـ قرطاجة : القرية الجديدة واصل اسمها «قريات جديثا» ، ثم حرفت.

اذن تمد هذه المنطقة بفيض بشري متدفق متواصل ، طوال حقبات تاريخية مختلفة . وكانت تتصارع مع شعوب واقوام اخرى . الا ان هذه الموجات ، او هؤلاء القوم ، ولا نريد ان نستخدم كلمات حديثة ، حتى لا نفسد المعنى ـ (الذين يسميهم التاريخ عربا) ، استطاعوا ان يملأوا هذه الرقعة من العالم التي تشكل وحدة جغرافية طبيعية ، والتي تمتد من جبل طارق الى باب المندب . هؤلاء الناس اذن الذين نتكلم عنهم ، هم الذين يسمون عربا . بعد ذلك هل العرب أمة ؟ لنجيب على هذا السؤال لا بد ان نسأل انفسنا : ما هو تعريف الامة ؟؟

وفي تعريف الامة هناك مدارس . هنالك المدرسة العرقية التي تعتبر ان الامة تشكل عرقا معينا وعرقا صافيا ، وابرز ممثلي هذه المدرسة الحركة النازية .

وهنالك المدرسة التي يمكن ان نسميها الجغرافية ، والتي تعتبر ان وحدة طبيعية من الارض ، تكوّن امة معينة مختلفة عن غيرها من الامم ، واشهر ممثلي هذا الاتجاه لدينا في الوطن العربي ، هو انطون سعاده ، الذي كان يعتبر ان خط الرمل في الصحراء العربية الذي يفصل بين العراق والجزيرة العربية ـ وهو خط لم نجده حتى الان ولم نعرفه ـ هو الذي يفرق بين الامة السورية وبين أمم العالم العربي الاخرى .

وهنالك التعريف الذي تبناه كما يقول ستالين الماركسيون الروس : الامة مجموعة من الناس تكونت تاريخيا لها لغة مشتركة وارض مشتركة وحياة اقتصادية مشتركة وثقافة مشتركة الخ .. فيما يتعلق بالتعريفين الاولين ، فلا اعتقد ان لهما علاقة بالعلم . وهذا ليس رأيي فقط . هذا راي تجمع عليه جميع الابحاث والدراسات العلمية .

الامة ليست عرقا بمعنى العرق ، والامة ليست نتيجة العيش على بقعة جغرافية محددة . الامة ليست عرقا ، لانه لا توجد امة في التاريخ استطاعت ان تبتعد عن الاختلاط ، وان تبتعد عن

التفاعل ، وليست هنالك أمما في التاريخ هي نتاج عائلة ، فقبيلة واحدة ظلت صافية الدم ، ثم تطورت واصبحت امة .

ان الامم القائمة حاليا ، وان كانت في اصلها قبائل محددة من اصل مشترك واحد ، فقد تفاعلت خلال مراحل التاريخ المختلفة ، وخلال الحقب المختلفة فسيولوجيا ، وثقافيا وسياسيا ، وكونت شخصيتها من خلال هذا التفاعل . فنظرية العرق الصافي ليست نظرية صحيحة . وهناك اجماع علمي على دحضها . فليست الامة اذن عرقا .

والامة ليست نتيجـــة الجغرافية ، لان الامـــة تحتاج الى بقعة من الارض تسكنها ، لان ذلك يعطيها الاستقرار ، ولان جماعة معينة من الناس لو تفرقت أيدي سبأ في بلاد مختلفة ، فلا تكون امة ، وبالتالي فهي بحاجة الى ارض تجتمع عليها . وهذه البقعة من الارض ليس ضروريا ان تكون وحدة جغرافية متكاملة ، وهناك اكثر من دليل على ذلك .

هنالك امم كالروس مثلا الذين تجاوزوا جبال الاورال شرقا وغربا ، وجبال الاورال مانع طبيعي ، وعاشوا على جانبيه . هنالك الشعوب التي تعيش في الاراضي الواطئة : السويد ـ هولندا ـ الدانمارك الخ .. وهي شعوب ايضا مختلفة ، وليست شعبـــا واحدا ، وان كانت الارض وحدة جغرافية واحدة .. بالتالـــي الارض لا تكوّن امة ، الارض عامل من عوامل تكوين الامة باعتبارها مكانا . يعني باعتبارها مكانا يعيش عليه الناس ، وعلى بقعة واحدة من الارض .

لو قلنا سوريا مثلا ، فعلى ارضها يمكن ان تعيش اكثر من امة ، وان تتجاور ، وان تتعايش . وما يحدد ذلك ليس الارض فقط . الذي يحدد ان الاتراك اتراك ، والعرب عرب ، وهـــم يعيشون متجاورين في بقعة واحدة من الارض ، ليس كون الارض الواحدة انتجت شعبين مختلفين . فالارض الواحدة يمكـــن ان تعيش عليها شعوب مختلفة ، وهي ليست عاملا ينتج شعوبا . هي

عامل ضروري لتكوين جماعة مستقرة من الناس . ولهذا السبب كانت الغزوات تتجاوز الحدود الطبيعية ، وكانت الغزوات تجعل امة من الامم تتمدد على حساب امة اخرى ، وتجعل امة تتقلص جغرافيا . اذن لا شأن لنا بهاتين المدرستين ، او لنقل نحن لا نعترف ، او لا نقر ان التحليل الذي يعتبر العرقية اساسا للامة، او يعتبر الجغرافيا اساسا للامة ، تحليل صحيح . هل نعتبر اذن التعريف الآخر تعريفا صحيحا ؟ نعتقد بأنه قد ملك بعض مقومات التعريف الصحيح .

فالامة فعلا جماعة من الناس ، تكونت تاريخيا ، مستقرة نسبيا . الاستقرار ضروري للعملية التاريخية . واذا لم يكن هنالك استقرار فلا عملية تاريخية . وتجمع هذه الامة لغة مشتركة ، واللغة المشتركة هي جزء ايضا من التاريخ المشترك ، والتاريخ المشترك ، وبقعة من الارض مشتركة ، لانها عامل من عوامل الاستقرار والتفاعل . ونختلف مع هذا التعريف في اعتبار السوق المشتركة عاملا من عوامل تكوين الامة. ولقد لفت نظري ان ستالين نفسه صاحب هذا التعريف ، قد اعاد النظر فيه فيما بعد ، واسقط قضية السوق المشتركة من الدراسة التي كتبها سنة ١٩٢٨ ، عندما رد على بعض الذين انتقدوا تعريفه قال لهم : انتم اذن تتجاهلون ان هنالك امما مستعمَرة ، والامم المستعمَرة امم. والامم المستعمَرة ـ وهذا هو ما لم يضفه ، وأضيفه انا ـ ليس لها سوق مستقلة ، لانها هي جزء من السوق الاستعمارية . فعندما كانت الهند تابعة لبريطانيا ، لم يكن هنالك سوق مستقلة لشعوب الهند ، بل كانت السوق في الهند تابعة للاقتصاد البريطاني . ان عوامل تكوّن الامم تبلورت عبر عملية تاريخية ، فالشعوب لا تولد ولا تتكون خلال مائة سنة او مائتين او ٣٠٠ سنة . وعملية تكوّن الشعوب عملية طويلة .

وعندما نتحدث عن الشعب الالماني الان مثلا ، فلا يجوز ان ننسى ان القبائل الجرمانية موجودة منذ زمن طويل ، قبل قيام

المانيا الموحدة ، وهنالك تاريخ لها . وان اوروبا الحديثة لم تجيء من فراغ ، فهنالك قبائل كانت قبل ان تكون هذه الشعوب وهي قبائل معروفة . وان عملية تكوّن هذه الشعوب مرت بظـروف ومراحل تاريخية طويلة معقـدة انتجت ما يسمى الان الامـم الاوروبية .

هل تنطبق هذه العوامل التي اعتبرناها عوامل اساسيـة لتكوين الامم على الامة العربية ؟ نعم انها تنطبق عليها . واذا قلنا ان العرب جماعة تكونت تاريخيا ، فهي فعلا جماعة تكونت تاريخيا. وهي تعيش مستقرة على قطعة من الارض ، منذ عهود طويلة . واذا تساءلنا : هل لهذه الجماعة تاريخ مشترك ؟ كان الجواب : نعم لها تاريخ مشترك . واذا اردنا ان نضيف : هل كانت لها سوق مشتركة في يوم من الايام ؟ كان الجواب : نعم . ولقد تحقق ذلك منذ الفتوح العربية (1) . ولقد مرت هذه السوق بتعقيـدات مختلفة ، وتأثرت بالصراعات الداخلية ، والاعتداءات الخارجية ، الا انها ظلت على الأعم الاغلب خلال مئات من السنين تشكل سوقا واحدة . ثم تغير ذلك بفضل عوامل الاستعمـار الخارجي ، اي بفضل عوامل السيطرة الخارجية على الارض العربية ، واخضاع العرب للاحتلال . كان هنالك الاحتلال العثماني ، بعد التمزق الذي حصل نتيجة الصراعات السياسية والمذهبية . ثم جاء الاستعمار الاوروبي الحديث ، ففرض ظلمه على الوطن العربي ، ووزعه الى اقسام ، فاقتطعت كل دولة جزءا او اجزاء ، واخضعتها لسوقها.

هل يعني ذلك ان الامة العربية انتهت ؟ ان الاحتلال لا ينهـي وجود امة . ولولا ذلك لكان علينا ان نطالب بالغاء حركات التحرر

---

1 ـ وان كانت اشكال من ذلك قد تحققت في مراحل سابقة ، مع ان هذا يحتاج الى دراسة جادة لهذه المراحل ، وخاصة مرحلة ما يسمى الفينيقيين في المشرق والمغرب ، والدولة الاشورية والدولة البابلية الخ .

الوطني ، باعتبار ان الاراضي التي احتلتها بريطانيا بريطانية ، والتي احتلتها فرنسا فرنسية ، والتي احتلتها المانيا المانية وقضي الامر . ان وجود الامم يتكون عبر عملية تاريخية طويلة ، ولا ينتهي الا عبر عملية طويلة معقدة . واذا كان جماعات من السريان مثلا الذين هم مجموعة سامية تنحدر من الجذر العربي ـ لان كل المجموعات السامية تعود الى الجذر العربي كما اثبتت حقائق التاريخ ـ ما زالت تعيش في سوريا حتى اليوم في ثلاث قرى ، مثلا ، تتكلم لغتها ، تعيش حياتها ، ولم تستطع كل عوامل التاريخ، وكل التطورات التاريخية ان تغيرها ، فكيف يمكن ان تتغير الامم او تزول بهذه السهولة ؟ ان هنالك كثيرا من الاشكالات التي يعيشها العالم اليوم بسبب الخلاف على الحدود . هنالك خلافات في اوروبا ، وهنالك صراعات طويلة . وهنالك كثير من الاشكالات التي يعيشها العالم اليوم لان هنالك اقليات ترفض ان تندمج في وحدة جغرافية اوسع . وهذا كله يدل على ان ذوبان الامم ليس عملية سهلة . فالامم تتكون ضمن عملية تاريخية ، وتذوب ايضا ضمن عملية تاريخية طويلة معقدة ، اطول من عملية تكوينها .

ان الاستعمار الخارجي الذي جزأ الارض العربية ، حاول ان يخلق من الامة امما ، ولكنه لم ينجح في ان يمنع نمو الوعي العربي من اجل الوحدة العربية . وبمقدار ما كانت تزداد مؤامرة التفتيت شراسة ، كان الوعي من اجل الوحدة يزداد قوة . وهذه عملية منسجمة مع العلم ، ومنسجمة مع حقائق التاريخ . فلماذا لم تتحقق الوحدة العربية اذن ؟ لم تتحقق نتيجة عاملين مترابطين :

الاول : لان القوى الذاتية الداخلية ، اي القوى السياسية ، لم تكن قادرة على ان تحقق الوحدة ، فالوحدة الايطالية لم تتحقق عفوا ، بل تحققت نتيجة وجود قوى خاضت معركة تحقيقها . ان القوى الداخلية لم تكن قادرة عندنا . اما في اوروبا فقد قادت البرجوازية القادرة حركة واسعة ، انضمت اليها جماهير العمال

والفلاحين ، وادت الى تحقيق وحدة فرنسا او بريطانيا او ايطاليا او المانيا . وكانت البرجوازية في ذلك الحين طبقة ناشطة ، تبني مصانع جديدة ، وتطمح نحو القوة ، فاستطاعت ان تضرب الاقطاع وأن تحقق وحدة بلدانها .

اما في الوطن العربي ، وخلال العهد العثماني ، فلم يكن ممكنا في ظل الاحتلال القاسي ان تنمو الطبقة البرجوازية الفاعلة . ولم يكن العمال في وضع يسمح لهم ان يقودوا المعركة من اجل الوحدة. فلم تكن هنالك برجوازية ولم تكن هنالك مصانع ، ولم يكن هنالك وعي حتى تستطيع الطبقات الاخرى ان تنجز ما لم تستطع البرجوازية انجازه . وبالتالي جاء الاستعمار الاوروبي فقسم الارض العربية ومزقها ، وحاول ان يجعل من الاقاليم او الاجزاء التي يقتطعها أمما ليمنع عملية الوحدة . وكانت هذه العملية مخططة . ان الفرنسيين (١) والبريطانيين اساسا ، كانوا يعرفون ما معنى ان تتحقق وحدة عربية . وكانوا يعتقدون ان الاتجاه التاريخي هو اتجاه تحقيق الوحدة ، وفي ذلك ابحاث كثيرة وليس ذلك نوعا من الوهم او نوعا من التكهنات . ولقد فكروا منذ بداية القرن الماضي ، ان يمنعوا قيام هذه الوحدة ، فاتخذوا الاجراءات التي يرونها مناسبة . تبنوا بعض الزعامات شبه العشائرية ، ودعموها ، حتى تكوّن وحدات صغيرة . حركوا النزعات التي نعرفها اليوم باسم الفرعونية والفينيقية وغيرها وغيرها . شجعوا ما يسمونه الاقليات القومية والدينية ، على أن تتمرد ، وأن تعتبر نفسها انها ليست عربية . ولا اقصد هنا الاكراد مثلا ، او جنوب السودان ، وانما اقصد مثلا الموارنة في لبنان ، والمسيحيين

---

١ ـ ايد الفرنسيون حركة محمد علي باشا لتوحيد الوطن العربي ، وشجعوه على التوجه نحو المغرب . ولكنهم عادوا واتفقوا مع البريطانيين على ضربه ، وانتهجوا سياسة استعمار واستيطان واستثارة نعرات الخ .

الاقباط في مصر .

لقد شجعوا هؤلاء الناس على ان يقتنعوا بأنهم ليسوا عربا ، وان من حقهم ان ينشئوا دولا مستقلة لهم . ولكنهم لم ينشئوا دولا مستقلة لهم ، بل اخضعوا لهم اجزاء واسعة. مثلا في لبنان اتبعوا للبنان ولايات لا تعتبر نفسها مارونية . وفي مصر كانت الحدود السياسية اوسع كثيرا من حدود الاقباط. ومع ذلك كانوا يعتبرون انهم بتشجيعهم الموارنة او الاقباط يستطيعون ان يخلقوا كيانات صغيرة ، لها عامود فقري يحملها ، مكون من فئات رجعية ، لتكون معادية للعرب .

اذن كان هنالك وضع داخلي ، وكان هنالك عامل خارجي . ولقد كانت الدول الاستعمارية الاوروبية ، وخصوصا بريطانيا وفرنسا ، قد انجزت وحدتها السياسية ، وبنت نظامها الاقتصادي الجديد ، واصبحت بحاجة الى الاسواق ، ولقد اكتشفت ان هذه البقعة التي تسمى الوطن العربي ، تصلح سوقا واسعة وفيها الكثير من الثروات : فيها ارض خصبة ومعادن هامة ، فلماذا لا تحتلها اذن ؟ لماذا لا تمنع وحدتها ؟ لانها اذا ما حققت وحدتها فستكون دولة قوية قادرة على ان تقف في وجه الهجوم الاستعماري . لهذا السبب اتفقت بريطانيا وفرنسا ، على الرغم من التنافس بينهما ، على ضرب حركة محمد علي ذلك الالباني الذي اكتشف حقيقة تاريخية ، وقرر ان يعمل لتحقيقها . وهي انشا دولة عربية . وكان يعتقد ان ذلك يسير في خط التاريخ . ولقد خاض معارك من اجله ، واستطاع ان يحقق وحدة سوريا ولبنان وفلسطين والجزيرة العربية ، وهي التي لم يستطع احد ان يدخلها في مراحل مختلفة . وكان يفكر في الامتداد الى ليبيا والجزائر والمغرب . لقد وقفوا في وجهه لانهم كانوا يعتقدون ان مثل هذه الوحدة خطرة على المصالح الامبريالية .

لم تتحقق الوحدة اذن نتيجة عاملين : نتيجة الضعف الداخلي ، الهزال الداخلي ، عدم وجود فئة او طبقة قادرة في

مرحلة تاريخية على ان تحقق الوحدة ، ونتيجة هجوم استعماري شرس واسع ، جاء في وقت نمت فيه البرجوازيات الاوروبية ، وكانت في ارقى مراحل قوتها . وعندما بدأ هذا الغزو كانت الدول الاوروبية الحديثة المصنعة قوية . وكان مجتمع متخلف كالمجتمع العربي لا يستطيع ان يقف في سبيلها .

هل يعني عدم تحقيق الوحدة العربية ان الامة العربية غير موجودة ؟ الواقع هناك فرق بين الوحدة والامة .

الامة جماعة من الناس تكونت تاريخيا ، والوحدة تتحقق او تزول نتيجة عوامل سياسية داخلية او خارجية ، ولكن تحققها او عدم تحققها ، لا يلغي وجود الامة .

لنأخذ الالمان مثلا . ان الذي دعا الى وحدة الولايات الالمانية – كما كانوا يسمونها في ذلك الحين – كان يعرف ان المانيا مجزأة، ولكنه لم يكن يقول تعالوا لنخلق أمة المانية نوجدها ، بل كان يقول هلموا لنوحد أمة المانية موجودة . ولانها في الحقيقة موجودة ، ولان عوامل نشوئها لا تعود الى سنة ١٨٧٠ . ذلك ان بسمارك انجز الوحدة الالمانية سنة ١٨٧٠ ، وسنة ١٨٧٠ كان هنالك المان، وكان هنالك لغة المانية . ولكن هؤلاء الالمان كانوا موزعين في حوالي اربعمائة ولاية اولا ، ثم تقلص عدد الولايات الى ثمان وثلاثين ونشأ نوع من الاتحاد يجمعها .

وكان الذي يمنع وحدة الالمان عاملان ايضا كالعرب : عامل داخلي ، لانه لم يكن هنالك قوة داخلية قادرة على تحقيق الوحدة. وانا اذكر ان في دراسة التاريخ الالماني بعض المفارقات المضحكة . فعندما ثارت الجماهير الالمانية سنة ١٨٤٨ ، وطالبت باحد الامراء الذي لا اذكر اسمه الان (١) ان يكون امبراطورا على المانيا كلها ،

---

١ – اسم الامير : فردريك غليوم : يراجع حاطوم ، نور الدين : تاريخ الحركات القومية الجزء الثاني ص ٤١٦ – ٤٢٣ – دار الفكر الحديث – لبنان ، والجزء الثالث ص ١٦ .

قال الامير الذي تطالب كل الجماهير الالمانية بأن يكون امبراطورا عليها : انا لا آخذ تاجا من الشعب ورفض . كل الشعب الالماني كان يريد ملكا ، والملك يرفض لانه لا يأخذ التاج من الشعب . ان هذا يؤكد ان قضية وحدة المانيا ليست قضية الطبقة البرجوازية التي قامت فأوجدت الامة الالمانية . كان هنالك شعور الماني متنام لدى جماهير الشعب التي قامت بنشاطات تجدر دراستها حقيقة ، وكانت تطالب بالوحدة ، وكانت تظن ان الوحدة تتحقق في ظل الملك . هكذا كان الوعي في ذلك الحين . ومع ذلك رفض الملك ، لانه لا يريد تاجا من أيدي الشعب . فالوحدة اذن شيء والامة شيء آخر .

الامة جماعة من الناس تتكون تاريخيا . والوحدة تتحقق في لحظة تاريخية معينة ، عندما تتوافر عوامل تحقيقها الخارجية والداخلية .

بالنسبة لالمانيا كان هنالك العامل الداخلي ، وكان هنالك ايضا العامل الخارجي . لان المانيا كانت واقعة في صراع بين امبراطوريتين قويتين : الفرنسية ، والروسية . وكان القياصرة الروس يرفضون وحدة المانيا ، لانهم يخشون قوتها . وكان ايضا ملوك ورؤساء فرنسا يخشون وحدة المانيا . وهنالك عداء تاريخي بين فرنسا والمانيا . ولذلك ماذا فعل بسمارك ؟ لقد حيد القياصرة الروس فضرب الفرنسيين وحقق وحدة المانيا . لقد عقد بسمارك معاهدة سرية مع الروس فاسكتهم . وكان القياصرة الروس في وضع يجعلهم يقبلون بمعاهدة سرية مع المانيا . فاتجه بسمارك الى الفرنسيين ، ولم يحقق وحدة المانيا الا بدخول باريس . لان هذا العامل الخارجي كان عاملا هاما . لقد كانت فرنسا ضد وحدة المانيا ، مما دفع المانيا للهجوم على فرنسا، واحتلال باريس .

العامل الخارجي كان عاملا هاما جدا في وحدة المانيا كما كان

في وحدة ايطاليا ايضا . ان وحدة ايطاليا لم تتحقق حتى عندما نمت القوى الداخلية، واصبحت القوى البرجوازية الداخلية تطالب بالوحدة ، تؤيدها جماهير العمال والفلاحين . لان الذي حقق وحدة المانيا وفرنسا ليس البرجوازية فقط ، هناك بعض الناس الذين يفكرون ان البرجوازية هي التي حققتها . ان الذي حققها هو نضال العمال والفلاحين تقودهم البرجوازية . وكان العمال والفلاحون هم الاكثر حماسة لتحقيق الوحدة . ولم يكونوا معزولين عن العملية التاريخية . ومن هذا المنطلق فان هذه العملية التاريخية التي ضربت الاقطاع عملية تقدمية وليست رجعية .

كان العامل الثاني بالنسبة لوحدة المانيا هو العامل الخارجي وهو موجود لدينا . القوى الخارجية ماذا تريد ؟ هل تقبل الوحدة ؟ او تعادي الوحدة ؟

الملاحظ الان ان جميع القوى الخارجية تعادي الوحدة العربية لسبب او لآخر . بعضها يقف منها موقفا سلبيا نتيجة جهل ، لانه يعتبر ان هنالك امما عربية ، او ان هنالك شعوبا عربية ، وليس هناك امة . وبعضها يقف منها موقفا معاديا نتيجة مصالح اقتصادية محددة ، لانه يعرف ان الوحدة عندما تتحقق ، فيمكن ان تتطور صناعة ثقيلة ، ويمكن ان ينشأ جيش قوي ، ويمكن ان تتكون حضارة . وعندئذ لا يمكن ان يتحقق الاستغلال والنهب كما يتحقق في هذه الايام .

بعد ذلك كله ارى من الضروري ان نتحدث عن الافكار المتضاربة حول الوحدة العربية ، وارى ان هنالك مجموعتين من الافكار :

المجموعة الاولى : تغذيها الجهات الاستعمارية وهي مجموعة واضحة الاهداف . ان هذه المجموعة تؤكد على انه ليس هنالك امة عربية . وهم لا يبحثون لماذا ليس هنالك امة عربية . ان ما يسمى عربا اقوام ومذاهب مختلفة ، انهم يتحدثون عن العرب ، باعتبارهم شيعة وسنة مثلا ، باعتبارهم

مسيحيين ومسلمين ، باعتبارهم موارنة وأرثوذكس . وهم يحاولون أن يخلطوا بين ما له علاقة بالقومية ، وبين ما له علاقة بالدين ، وذلك للتشويش . ذلك ان اختلاف المذاهب لا يمكن ان يكون مانعا لوجود امم . ان كون مجموعة من الناس شيعية او سنية لا ينفي كونها امة ، وكذلك كونها ارثوذكسية او مارونية . لان الاديان والمذاهب لم تكن في يوم من الايام عاملا من عوامل تكوين الامة باعتبارها أديانا او مذاهب . وعندما نتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد ، سنذكر اثر الدين الاسلامي في العرب ، لا باعتباره كوّن الامة ، بل باعتباره عزز الثقافة العربية التي ساعدت على تطوير الوجود الثقافي للامة . فهذه الفئة الاولى من الآراء يحركها استعماريون ومعادون ، تحركها الدوائر الاستعمارية الامبريالية ، وتتلقفها فئات من الرجعية المعادية التي تريد ان تدافع عن طوائف ، او عن مذاهب ، والتي تعتبر ان حدود العالم تنتهي عند حدود الطائفة ، لان لها مصالح في ذلك . ومثل هذه الموضوعات هي التي انتجت الفينيقية والفرعونية وغيرهما . وهي التي تحاول الان ان تبرز مثلا تاريخ اليمن القديم ـ وتاريخ اليمن القديم عربي ـ وتاريخ مصر الفرعوني ، وتاريخ ليبيا الروماني الخ .. لكي تقنع قطاعات في كل قطر من الاقطار ان له تاريخا طويلا مجيدا ، يجب ان يعتز به . وان هذا التاريخ هو تاريخه الحقيقي ، وان هذا التاريخ هو الذي يجب ان يؤثر في تكوين الشعب الان ، فتصبح القضية الاساسية في ليبيا هي التليبيب ، ويصبح لليبيا تاريخ قديم غير عربي يعاد الى بعض الآثار الرومانية ، وتصبح القضية الاساسية في مصر هي التمصير ليس بالمعنى الذي طرحه عبد الناصر ، يعني تحويل كل الممتلكات الاجنبية الى ملك للشعب المصري ، بل بمعنى ان مصر شيء مستقل ، وان التمصير ضد التعريب ، وفي لبنان اللبننة مثلا الخ.

المجموعة الاخرى من الآراء هي الآراء المستندة الى تحليلاتغير

دقيقة . ومع الاسف ان كثيرا من هذه التحليلات يدعي انه ينتمي الى الماركسية ، كالآراء التي تقول ان هناك امما عربية ، او التي تقول ان ما يسمى عربا الان ، هم امم في طور النشوء او الآراء التي تقول ان «اسرائيل» امة تكونت ، والعرب امة لم تتكون الخ . . ومجموعة الآراء هذه ليست علمية ، وليست صحيحة . ولذلك يجب دحضها ايديولوجيا ، ويجب تبيان مخاطرها سياسيا ، لان هدفها تفتيت حركة الجماهير ، والوقوف في وجه الاتجاه التاريخي . وهدفها يصب في النهاية ، شاء الذين اطلقوها او لم يشاءوا ، في خدمة الاهداف المعادية . ومن واجبنا ان نناقش هؤلاء ، وان نوضح لهم خطأهم ، وان ندحض افكارهم ، لان عدم دحضها يصب في مجاري القوى المعادية .

بعد ذلك كله لماذا نطرح كل هذه الآراء ؟ الحقيقة لا نطرحها لاننا نريد أن نحلل التاريخ فقط ، ولا نطرحها لاننا نريد ان ننتشي بالماضي ، او لاننا نريد ان نعجب بأنفسنا كأمة ، أننا نطرحها لاننا نعتقد ان الوحدة السياسية من جوهر الثورة العربية . اي اننا نطرحها باعتبار ان قضية الوحدة من الناحية السياسية قضية هامة جدا ، لا يجوز تجاهلها . وفي الوطن العربي هناك اتجاهان الان : اتجاه الوحدة ، وهو اتجاه الثورة ، واتجاه التاريخ ، واتجاه التقدم ، واتجاه تحرير الارض ، واتجاه بناء مجتمع متقدم ، وحتى بناء الاشتراكية .

واتجاه آخر معادٍ للوحدة ، وهو اتجاه المحافظة على التخلف، اتجاه ابقاء عوامل الضعف والتحلل . واتجاه ابقاء السيطرة الاجنبية ، واتجاه محاربة الاشتراكية ، ولكن بطريقة صريحة او ملتوية . لماذا ؟؟ لان هذا الوطن لا يمكن ان يبنى قويا وعزيزا ومتقدما ، ولا يمكن ان يستطيع الاستفادة من ثرواته ، الا اذا اتحد . وحركة الوحدة هي حركة الصدام الحقيقي مع القوى الرجعية المحلية . فالرجعية المحلية تقبل حزبا ثوريا متطرفا في

قطر من الاقطار العربية ، اذا كان يقول : لبنان للبنانيين ونحن سنقيم ثورة اشتراكية حمراء في لبنان . ولكنها لا تقبل حزبا ديمقراطيا اصلاحيا يقول اسقطوا هذه الحدود ، ويعمل من اجل ذلك ، لان الحزب الذي يقول اسقطوا هذه الحدود ، هو الذي يقول اسقطوا هذه الانظمة الرجعية . لان هذه الانظمة الرجعية باقية ، ضمن اطار هذه الحدود . وهذه الحدود اوجدها الاستعمار اولا ، ثم حافظت عليها الامبريالية ، لكي تسمح لهذه القوى الضعيفة الهزيلة المرتبطة ، ان تلعب دورا داخليا هاما وخطرا . وفي الوقت الذي تسقط فيه هذه الحدود تسقط هذه القوى جميعا . لا يجوز ان نتصور ان النظام السعودي سيبقى قائما وكذلك النظام الكويتي ، والطبقة الرجعية اللبنانية الحاكمة الخ.. اذا اجتاحت حركة الجماهير العربية هذه الحدود . فهي عندما تجتاح هذه الحدود تسقط هذه الدول التي تضع القوانين وتبتدع التقاليد ، اذا جاز لنا ان نقول ذلك ، من اجل ان تثبت وجودها في قطر من هذه الاقطار ، ومن اجل ان تمنع عملية الوحدة . فعملية الوحدة من جوهر الثورة . وبدون الوحدة لا نستطيع ان نبني اقتصادا متطورا قويا يقضي على التخلف . وبدون الوحدة لا نستطيع ان نواجه التخلف ، لاننا في هذا القطر نجد اليد العاملة ولا نجد رقعة من الارض نزرعها ، كما هي الحالة في مصر . ويكاد الناس يختنقون من الازدحام ولا يجدون ما ياكلون . وبالتالي فمصر بحاجة للقروض . والقروض لا تحقق تنمية حقيقية . والقروض تزيد من الارتباط بالقوى الخارجية ، وتبقى مصر مرتبطة ، لانها بحاجة الى القمح والخبز والبلح والى كل شيء . وليبيا بلد واسع ، فيه ثروة هائلة ، وليس فيه يد عاملة ، ولا خبرات فنية ، وهكذا . والسعودية بلد واسع فيه عدد قليل من السكان ، وفيه ثروات هائلة جدا ، ولكن ليس فيه يد عاملة ولا خبرات فنية . ثم هذه الاقطار التي نسميها اقطارا هي اقطار

صغيرة بحجمها ، لا تستطيع ان تنشيء صناعة ثقيلة ، لان الصناعة الثقيلة تحتاج الى السوق الواسعة جدا . والصناعة الثقيلة تحتاج ايضا الى القدرة على المنافسة الخارجية في عصر اصبحت فيه المنافسة الخارجية تدق كل ابواب العالم . ان الذي يريد ان ينشيء مصنعا للسيارات الان لا يستطيع ان ينتج الف سيارة او الفين او خمسة آلاف في وقت تنتج فيه المصانع البريطانية مثلا او الفرنسية مليونين ونصف مليون سيارة في العام . لان الذي ينتج مليونين ونصفا يستطيع ان يسحق المنتج الصغير ، يسحقه بالاسعار ، ويسحقه من حيث النوع. وبالتالي فان الذي يريد أن ينشيء صناعة ثقيلة ، وأن يواجه المنافسة الاجنبية ، لا يستطيع ذلك الا عبر سوق واسعة . وليس هنالك قطر عربي واحد ، حتى مصر ، يمكن ان يعتبر سوقا واسعة كافية للصناعات الثقيلة ، صناعة الفولاذ والحديد والطائرات والدبابات الخ . ونحن عندما كنا نناقش بعض الانظمة العربية المقتدرة حول انشاء بعض الصناعات العسكرية ، كانت تقول نحن وحدنا لا نستطيع ذلك ، نحن نملك المال ، ولكن المال ليس هو كل شيء . وهذا صحيح .

فالوحدة اذن من جوهر الثورة . والتأكيد على وجود الامة ليس هدفه فقط البحث الاكاديمي ، اذ ان الناحية الاكاديمية حقيقة ، ولكن هدفه ايضا ان يكون ردا على كل الذين لا يريدون ان تحقق الامة العربية وحدتها .

ان انجاز الوحدة يحقق اكتمال الوحدة السياسية . واكتمال الوحدة السياسية ضروري لتطوير كل المعالم الثقافية والحضارية في الحياة . والوحدة ضرورية كما قلت لبناء السوق ، ولانجاز تنمية حقيقية . وبدون هذه السوق سيكون من الصعب الحديث عن الانتقال الى الاشتراكية ، لان الانتقال الى الاشتراكية انتقال الى المجتمع الصناعي ، الذي يستطيع ان يقدم الوفرة للناس ، وأن يحل الاشكالات الاساسية لهم . ونحن بالطبع سوف لا نمر بالمرحلة

البرجوازية ، كما مرت بها اوروبا ، ولكن الانتقال الى الاشتراكية لا يتم في اقطار متخلفة تابعة لا تستطيع ان تنجز حتى استقلالها السياسي الحقيقي ، فكيف اذا تحدثنا عن انجاز استقلالها الاقتصادي . بعد ذلك كله ، وما دامت الوحدة من جوهر الثورة، فما هي طبيعة الثورة القومية التي ندعو لها ؟ لقد تحدثنا عن ذلك بأشكال مختلفة فيما مضى . ولكنني اود ان اؤكد على حقيقتين : الاولى ان حركة الوحدة في وطننا حركة متصادمة مع الامبريالية. وهذا حتمي ، لان الامبريالية تقف كما ذكرت لكم في الصف المعادي للوحدة . اذ ان بقاء التفتت هو الذي يخدم ارتباط كل قطر عربي بها . وهو الذي يخدم ارتباط اجزاء وطننا بالامبريالية. ولهذا فالقوى التي ستخوض نضالا وحدويا حقيقيا ، ستخوض صراعا حقيقيا ضد الامبريالية ، وضد كل ادواتها ، ومنها العدو الصهيوني . والقوى التي ستخوض عملية الوحدة داخل وطننا قوى ستصارع القوى الرجعية المحلية بكل اشكالها : بقايا الاقطاع وبقايا الحياة العشائرية والبرجوازية والبرجوازية الكمبرادورية، والبرجوازية الصغيرة المرتبطة . ان كل هذه القوى قائمة على اساس تجزيئي ، قائمة على اساس وجود هذه الاقطار التي خلقها الاستعمار ، وأكدت وجودها الامبريالية . وهي قوى عاجزة ، قوى غير منتجة ، مرتبطة بالسوق الامبريالية ، ومرتبطة بالقوى الامبريالية ، وهي ضد حركة الوحدة . فالصراع من اجل الوحدة والنضال من اجل الوحدة سيصطدمان حتما بهذه القوى .

ومن هاتين الحقيقتين نستطيع ان نحدد طبيعة حركة الثورة القومية العربية . انها حركة معادية للامبريالية حتما ، لكل اشكال الامبريالية ، ومعادية بطبيعتها ايضا للقوى الرجعية المحلية بكل اشكالها ، لان هذه القوى المرتبطة بالامبريالية بشكل مباشر او بشكل غير مباشر ، معادية للوحدة والتقدم .

هذه ملاحظات عامة حول قضية الامة ، وحول قضية

الوحدة ، اطرحها للنقاش ، وآمل ان نناقشها بتوسع وباستفاضة، لان مناقشة هذه القضية ضرورية لنا في عملنا الثوري ، سواء كان ذلك في مجال خلافنا الرفاقي مع بعض القوى الوطنية التي ما زالت لا تدرك ابعاد هذه القضية ، او الصراع العدائي مع القوى المعادية .

